قبل الوصول إلى خط النهاية

كان حشمت بركات يهز رأسه طلبًا للإفاقة وهو يمعن النظر فى شاشة التلفاز وكأنه لا يصدق ما يراه.. إذن، فما قاله الرئيس فى مجلس الشعب لم يكن حديثًا به مزايدة أو تهويش.. فها هو فعلًا يهبط سلم الطائرة فى تل أبيب.. وها هم جميعًا فى انتظاره: جولدا مائير، ومناحم بيجن، وموشى ديان وصفوة المجتمع الإسرائيلى والإعلام العالمى...

ويتذكر كلمات سمعها ذات يوم من شقيقه أشرف عندما كان يحلل له شخصية السيد النحال فأتى بتفسيرات عميقة وعجيبة ثبت لحشمت مدى صحتها، وربط بين هذه التحاليل ومدى مطابقتها لشخصية أنور السادات.. فأشرف قال عن ابن النحال إنه رجل مملوء بقدرات عالية قد يكون لا يعرفها، لكنه حتمًا يحس بها، فهو رجل يسلك طريقه فى الحياه بتناقض من يلعن الواقع ثم يستثمره. رجل يبحث عن المجهول ليجعله واقعًا، رجل كان بإمكان الشعر أن يشفيه، لكن الشعر لا يشفى الشياطين.. رجل لا تشفيه سوى المقامرة والمخاطرة والسعى إلى الانتحار..

ـ «إذن، فهذا الرجل يسعى إلى الانتحار..»

هكذا هتف وهو بين ثلاثة من أصدقاء «البزنس» المتصاعد، فقال السيد النحال:

ـ «عندما يكون الانتحار هو الحل الوحيد عند صاحبه فليس له إلا أن ينتحر»

وقال فايز فودة:

ـ «رب لقاء يفتح لك كل الأبواب العصية.. زمان التقى صعلوك اسمه السيد النحال برجل اسمه جمال عبد الناصر.. وكان ما كان»

ضحك السيد النحال لهذه اللكزة المداعبة، وقال:

ـ «مع الفارق، فأنا أؤكد لك أن أنور السادات سيعلو ويعلو وستفتح له كل الأبواب العصية، ولن يفت فى عضده أن يتمتع مثلى بعدد هائل من الأعداء مقابل قلة من الأصدقاء الذين ستروق لهم هذه القفزة»

أما فتيان فتيان فلم يفتح فمه بكلمة واحدة لأنه لم يجد ما يقوله، فحمد الله على ذلك.

* * *

وفى منزله ألقى حلمى عبد الباقى بالصحيفة الحكومية متأففًا، وراح يروى لزوجته خميسة عفيفى قصة اللقاء الذى جمعه بأشرف بركات فى مكتب سامى شرف مدير مكتب جمال عبد الناصر.. وكيف كان من رأى هذا الرجل أنه لا سبيل إلى احتواء اليهود سوى الارتماء فى أحضانهم، وكيف حذره سامى شرف يومها من التحدث بمثل هذا الرأى أمام صديقه جمال عبد الناصر فى لقاءاتهما الأسبوعية الترويحية على شاطئ النيل أمام قصره.

ثم تساءل حلمى عبد الباقى عما إذا كان هذا الفكر الذى تبناه أشرف بركات قد امتد إلى عقل أنور السادات وتغلغل فيه إلى أن آمن به وشرع فى تنفيذه؟.. ولكن كيف؟.. ولماذا؟..

* * *

وصاح الشيخ فريد هنيدى من فوق منبره مؤكدًا أن هذه الزيارة لا تحمل من فكر السياسة أو من سياسة الفكر شيئًا.. كل ما هنا لك أن كرسى الحكم الذى كاد يهوى تحت ضربات جياع يناير ١٩٧٧ مازال يهتز تحت صاحبه.. وقد مضى على ذلك عشرة شهور لم يتمكن النظام طوالها من تقويم الحال المائل فألقى بورقته الأخيرة. التى لم ولن تحقق مكسبًا لنا قدر ما سوف تحقق للرئيس هدفه فى البقاء طويلًا طويلًا على كرسى الحكم..

ـ «فالبقاء لله يا سادة، وأعزيكم فى موت فكرة النضال من أجل السيادة، ثم أعزيكم فى موت السيادة، فانتظروا معى ظهور طبقة الحانوتية الذين سيحافظون على جثة الميت فى برودة ثلاجاتهم، وصقيع قلوبهم، ويوهموننا أنه حى يرزق، بل سيصورون لنا كم هو فارس مقدام يحارب الأعداء فى الخفاء بسيف المكر والدهاء..»

* * *

ولما امتلأت الصحف الحكومية ببيانات التأييد والانشراح من كل المؤسسات والدوائر ورجال الأعمال الجدد بإيعاز من سدنة النظام تعجب أمير النحال لذائقة النفاق الإبداعية التى تتطور على يد أخيه السيد الذى لم يكتف بنشر صفحات التأييد الكاملة ـ التى تتصدرها صورة الرئيس بطل الحرب والسلام بمساحة طاغية ثم أسفلها صورته بمساحة متواضعة ـ فعمد إلى مساحات أخرى جاءت على شكل حوار يجيب فيه عن أسئلة بعينها وضعت كمفتتح لإجابات منشودة، فاخترع السيد النحال عبارات لم يأت بها أحد قبله مثل «سلام الأقوياء» ـ و«الزلزال» وهو وصف استوحاه من زلزاله الخاص الذى قلب باطن أرضه عندما قابل جمال عبد الناصر. ثم أكد للناس:

«إن مشكلة جاليليو عالم الفلك الشهير قد تتكرر مع السادات؛ لأن كلًّا منهما جاء سابقًا لعصره، وبما أن التاريخ أنصف جاليليو بعد ما أعدمه الجهل والغباء وظُلمة العقل، فإن هذا التاريخ نفسه سوف ينصف السادات فى مستقبل الأيام».

* * *

أسرع أمير إلى أخيه وقال له عبارة ضحك السيد عند سماعها:

ـ «خذنى على جناحك يا أخى.. لماذا تضحك؟»

ـ «لأن هذه العبارة هى نفسها التى قالها فتيان..»

ـ «تقصد رجل الأعمال الشهير فتيان فتيان.. الرجل الذى ضحى بالبطولات الرياضية فى سبيل الاقتصاد.. دارس الآداب العتيد، والقافز بإصرار من تربية العجول إلى إذهال العقول.. ما كل هذا النفخ فى بالون حقير يا سيد؟.. ألا ترى أنك قد صنعت من الفسيخ شرباتًا؟..»

ـ «صناعة راقية لا تشم فيها أثرًا للفسيخ عند رجل يقتنى العطور الباريسية التى تتضوع من أردان حلله البير كاردان»

ـ «الله يرحم..»

ـ «شريكه الجديد فايز فودة، إقطاعى سابق، وكساحة انفتاحية جديدة، يعلمه الإتيكيت بروح النحات الذى يعشق تمثاله..»

ـ «وماذا تفعل «الماشطة» فى الوجه العكر؟»

ـ «نصف وزرائك يرفلون فى حلل إيطالية من هدايا فتيان لهم»

ـ «إذن، فقد عرف الطريق..»

ـ «يكفى أنه شاهدنى وأنا أقطعه.. القرود تجيد التقليد»

وتذكر أمير النحال حواره القديم مع صديقه مختار حول الرجال التماثيل والرجال القرود، وكأنما فوجئ بنفسه أحد هؤلاء الرجال، لكنه لم يوقن تمامًا بأيهما يمكنه أن يصف نفسه هل هو تمثال أم قرد؟.. فسرح طويلًا إلى أن جاءه صوت السيد:

ـ «وأخيرًا جئتنى لتمنحنى شرف مساعدتك.. هات ما عندك»

تمهل أمير قليلًا فقفزت أمامه صورة التلميذ صاحب البدلة الواحدة وهو يجلس مؤدبًا أمام أخيه الأكبر فى مطابع الصباح ليشترى له بدلة أخرى، وعثر مسرعًا على مدخله المناسب للحديث:

ـ «جئتنى زمان لأقاسمك السعى إلى المال والنفوذ وكنت مكابرًا عندما أدرت لك ظهرى، أنا نادم، وأدفع ثمن ذلك خوفًا وقلقًا، لم أجد لثروتى حماية سوى بإخفائها عند الآخرين، أكتبها لهم ثقة بهم.. ومصيرنا ـ أنا وثروتى ـ متوقف على هزة ريح..»

ـ «تريد الحصانه..؟ وأين رجالكَ الكبار الذين يساندونك؟»

ـ «نصحونى أن أبحث عن غطاء»

ـ «هل منصب الرئاسة فى شركتك مازال خاليًا؟..»

ـ «مكنّونى من شغله بشكل مؤقت بسبب الأقدميات»

ـ «مازالوا يفكرون ببلاهة، من قال إن السن فارقٌ حاكم؟»

ـ «وما الفارق فى نظرك؟»

ـ «أن تكون قردًا لا تمثالًا، اسمعنى جيدًا..»

* * *

ولما طغى ضجيج الزيارة الزلزال وصياح خصومها فى الداخل والخارج على كلّ الأصوات كان صوت الجياع هو الأكثر انخفاضًا وسط هذا الضجيج.. فعادوا مرة أخرى

إلى مواقعهم البائسة يشاهدون عودة مسلسل النهب غير آملين أن تتوهج فى داخلهم فتيلة الغضب التى ذبلت وخبت..

وامتلأت ساحة الانفتاح بنحالين جدد يتقاذفون على مسرح الأحداث بوجوه جديدة تبدو مختلفة فى كل مرة، حتى صاح الشيخ فريد هنيدى من فوق منبره:

ـ «النحالون يتزايدون، فارحمنا يا ألله»

وقد جاءت صرخته بعدما حدث تبادل للأدوار وظهر للناس وجه أمير النحال يبتسم برقة وهو يهدى للرئيس مباركته وتأييده مع كلِّ العاملين بشركة المقاولات المتحدة على صفحات كاملة فى الصحف السّيارة، فهذا هو الأخ الأصغر يفعل نفس ما يفعله الأخ الأكبر وبرع فيه لاحتواء الرئاسة.. وما خفى كان أعظم. وبنفس الحيلة المكشوفة التى يعلم صاحبها أنها مكشوفة عمد أمير إلى فكرة الحوار الصحفى مدفوع الأجر حتى وإن بدا أنه ليس كذلك ـ حتى يأخذ راحته فى الوثوب بين الأغصان كقرد يلهو.. فأوضح أن شركته أخذت على عاتقها مهمة القيام بتصميم وتنفيذ مبنى مجمع الأديان الذى يحلم به فخامة الرئيس وحدد له مكانًا قدسيًّا فى وادى الراحة بسيناء الخبيبة التى يعمل سيادته على إعادتها كاملة غير منقوصة إلى أحضان الوطن.

وقال أمير:

ـ ليتنا نحس بما يصبو إليه الرئيس من عناق يأمله بين المسجد والكنيسة والمعبد فى رمز بالغ التحضر يشير إلى عناق القلوب بين المسلم والمسيحى واليهودى..»

وضحك أشرف بركات ملء شدقيه وهو يحشو غليونه ويلقى بالصحيفة جانبًا، ثم قال لأخيه حشمت:

ـ «الولد أمير..»

وراح يشعل الغليون ويتحدث من خلال نفثات الدخان:

ـ «لعّيب كبير.. هل تقرأ إعلاناته وحواراته؟»

وبادله حشمت الضحك قائلًا:

ـ «إنه حدأة تحوم حول كتكوت صغير، منصب الرئاسة فى شركته»

ـ «إذن، أريحوا الحدأة.. بالكتكوت»

* * *

وفى جلسة أخرى كان أشرف بركات يلقى بصحيفة أخرى جانبًا ووجهه عابس، وعرف حشمت من اسم الصحيفة أن أخاه قد قرأ ما كتبه حلمى عبد الباقى، فتوقع أن يتمدد اسم حلمى بينهما الآن، وصدق توقعه حينما سأله أشرف:

ـ «أما زال حلمى مضربًا عن سهراتكم البريئة؟»

فقال حشمت بمرارة:

ـ «كلنا تحولنا عنده إلى حالات مضادة وأسماء مختلفه، السيد النحال هو الانتهازى الخادم الذى يأكل على كل الموائد، وأمير النحال هو أصغر من سرق منصبًا كبيرًا جلس به على قمه واحدة من كبريات شركات المقاولات فى مصر، وفتيان فتيان هو مربى العجول السابق وناهب العقول الحالي، وفايز فودة باعث نهضة إقطاع جديد اسمه إقطاع السمسونايت..»

زم أشرف بركات شفتيه وسأل أخاه:

ـ «وماذا يقول عنك؟»

تمهل حشمت بركات قليلًا، وقال متنهدًا:

ـ «ليقل ما يقوله.. فأنا الجدول الجاف الذى امتلأ بالمياه من بحر أخيه، هو لا يدرى أن هذا شرف لى»

ـ «وطبعًا ما يقوله عنى معروف، وما يظنه حولى أيضًا معروف»

ـ «وليظن أيضًا ما يظنه: الأيام دول.. وهل كان يتعشم أن يظل مدللًا فتمتد معه كل مكاسبه فى عصر عبد الناصر، كان يكتب فى صحيفة ومجلة قوميتين، ويلقى المحاضرات، ويدير مكتبًا للمحاماة باسم زوجته، العصر لم يعد عصره، فرجال العصر السابق من لم يذهب منهم فهو يستعد للذهاب»

ـ «ظننته قد أوقف نشاط مكتبه فى المحاماة»

ـ «عمليًا: يكاد يكون الأمر كذلك، الزبائن يتوجسون من طلب خدماته لعلمهم أنه

متورط فى قلق من النظام»

ـ «إذن، فالأفضل أن نريحه من جهد لا طائل منه.. اغلقوا مكتبه»

* * *

ولم تدرك خميسة عفيفى ـ إلا مؤخرًا ـ أن محضر الشرطة الذى حرره ضدها زبون مريب جاءها ما هو إلا مقدمة لغيوم كثيرة سوف تنعقد فوق رأسها وحول مكتبها، فالزبون المريب لم يسلمها أصل الشيك الذى ادعى أنها خانت الأمانة وسلمته لخصمه، والعجيب أن الخصم نفسه شهد بصحة الواقعة تبرئة لذمته وضميره الذى عاد إليه بعد أن استجاب لمساومة «هذه المحامية» ودفع لها مبلغًا كبيرًا مقابل الحصول على أصل الشيك، وكان أن تحول إلى شاهد ملك فى القضية..

رأت أنها تمثيلية ساذجة تبدو متقنة رغم ما يفوح بها من تآمر.. فقالت لمحامى الزبون الشاكى وهى تعرف أنه طرف فى المؤامرة:

ـ «اعرف ما الذى تسعون إليه، قل لمن تعمل معهم أننى سوف أستجيب لطلباتهم»..

قال لها وعلى فمه ابتسامة خبيثة:

«اذهبى للنقيب نفسه، فهو يجهز من الآن لشطبكما أنت والأستاذ»

وفى النقابة عرفت أن السيد النحال سبقها إلى هذا المكان، وقابل نفس الرجل محملًا بتوصية: «إغلاق باب تهب منه الريح» فقد قال لها الرجل المغلوب على أمره: «إذن، فلتغلقيه بنفسك يا أستاذة .. واقنعى حلمى يك أن ينحنى لهذه العاصفة، إنه هو المطلوب ولست أنت، لكنهم وجدوا فى ماضيك جريمة لم تكتمل حيثياتها وهو أنك زمان كنت تروجين الحشيش مع تاجر اسمه بدير وباقى اسمه مطموس فى صورة هذا المحضر، انظرى بنفسك»

ـ «إذن، قل لهم إننى سوف ألزم بيتى، وليضعوا شمعهم الأحمر غدًا على مكتبى.. وليرحموا إنسانيتى كأم لولدين ويوقفوا هذه المجزرة.»

* * *

وفى محبسها الاختيارى قالت لزوجها:

ـ «خصومك تحولوا إلى وحوش، إهدأ ودعنا نربى ياسر ويسرى، سنعيش من مدخراتنا حتى تنقشع هذه الغمة»

فقال حلمى:

ـ «الغمة تزداد يومًا بعد يوم.. والوحوش يتكاثرون.. فأىّ أمل لديك أن ننعم بالهناء وقد أغلقوا علينا كل أبواب الرزق؟ إنها فكرة التجويع قبل التركيع.. السادات يجهز الأجواء لترويج مباحثاته التى يعقدها مع اليهود فى كامب ديفيد، فيُعلى من شأن مؤيديه، ويخنق معارضيه، كان يتمنى أن أكون معه ليقتل معنى ثورة يوليو قتلًا مؤكدًا عندما يصبح أول سفير مصرى فى إسرائيل واحدًا من المشاركين بها، هذا ما لمسته من حديث حشمت فى جلسة عتاب»

ـ «هل سيفتح سفارة لمصر فى إسرائيل؟».

ـ «ولن يهتز له رمش عين إذا أغلق كل سفاراتنا فى الدول العربية»

ـ «أألى هذا الحد؟»

ـ «ألم يقل ابن النحال إنه «زلزال»، هل الزلازل تُبقى على شىء دون شىء آخر؟ أنا نفسى صرت من ضحايا الزلازل الذين ليس لديهم ما يخسرونه إذا عاشوا فى العراء، وأنا لم يعد عندى ما أخسره»

* * *

وبعد كامب ديفيد هتف الشيخ فريد هنيدى:

ـ «انكشف المستور، وطارت ورقة التوت التى كانت تستر عورة النظام، فإلى أى جدار ستتوارون أيها العراة»

وكتب حلمى عبد الباقى فى جريدة خليجية:

ـ «يمكنكم أن تؤرخوا لعلو إسرائيل فى الأرض منذ هذه المعاهدة، كما يمكنكم أن تؤرخوا بها لوفاة العرب»

والتقيا لأول مرة فى سجون مباحث أمن الدولة.. عدو النظام، الذى يخطب وعدوه الذى يكتب، وتساءلا فى نفس واحد «إلى أين؟».. فقال حلمى عبد الباقى: «إلى رحلة بلا

عنوان» وقال الشيخ فريد: «إلى عكس اتجاه الريح.. فالذين ركبوا متن الريح يعلون به علوًّا كبيرًا».. وراح يسرد متناقضات العصر بدءًا بعنتر مكاوى الذى يعمل بالحشيش والإنتاج السينمائى معًا، وعرفة وعوض عاشور أصحاب التوكيلات وأطراف الصفقات، وولدىْ فتيان الصبيين اللذين يعيدان بداية أبيهما ولكن بأرقام ذات أصفار عديدة، أما المهندس رأفت إبراهيم فهو المتورط فى تكاليف علاج يقتطعه من ثمن طعامه، وبادله حلمى عبد الباقى الأخبار فروى عن انتقال المافيا من سوق الحشيش إلى ميدان الآثار، وحرص رواد التطبيع على إنجاح المعاهدة برحلات إلى تل أبيب لا يخفون فيها وجوههم، وصارا ـ فايز فودة وفتيان ـ مخلبين لوحش كاسر هو السيد النحال. وأمير النحال أحاط مزرعته بعشرات المزارع مسروقة الثمن لملاّك كلهم من رجاله بعد أن حصل على حصانته كعضو معين بمجلس الشورى، ولم يتأفف عبد الجليل أبو سنة ـ المعين مثله ثمنًا لصفقه قديمه تنازل فيها لأخيه عن كرسى البرلمان أن يجلس بجواره، فالبرلمانى القديم الوارث لحكمة العين التى لا يجب أن تعلو عن الحاجب حجب ـ حكمته ـ وهو يقبل بعين العقل امتلاء الملعب بقرود وبهلوانات لا مفرّ من التسلى بمهاراتها فى القفز والتنطيط، فأىُّ قناعة يمكن أن يدركها المرء وهو يرى أن السيد النحال يضع بصمته واضحة فى تحريك نواب البرلمان صوب مزاج الرئاسة فيخلع النائب كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة فقط؛ لأن الرئيس أراد ذلك.. ويعض عبد الجليل أبو سنة على شفتيه؛ إذ وصلته مؤخرًا معنى فكرة أن تشترى شخصًا لحسابك فى ميدان السياسة فإنها عودة إلى تجارة الرق والنخاسة بفارق عجيب هو أن العبيد يجلسون قرب الأسياد حتى لا تكاد تفرق بينهما،

«ومن هوان الدنيا فى هذا الزمان أن تختلط السلعة بصاحبها على رف واحد فى معرض الحياة.»

* * *

وداخل مقالات حلمى، ومن فوق منبر فريد راح يندد كلٌّ منهما بكل المثالب التى سمعها من الآخر، ذاك يكتب، وهذا يخطب إلى أن اجتمعا فى حملة جديدة فى زنازين النظام، بعد أن رأى العسس أنهما أثقلا من عيار النقد والتجريح فهاجما الرئيس هجومًا

صريحًا لاستضافته شاه إيران الذى صار ديكتاتورًا شاردًا بلا مأوى، وكشفا عداوته للثورة الإيرانية.

«فكيف لطلقة واحدة رعناء التوجه أن تُصب القومية العربية والثورة الإسلامية فى وقت واحد؟» هكذا تساءل الكاتب الثائر حلمى عبد الباقى.

ولما عقد الرئيس جنازة مهيبة للشاه الراحل تساءل الشيخ فريد هنيدى:

ـ «إن كان يُحسب لأرض الكنانة أنها حنت على جثمان سارق عظيم نهب أموال الشعب الإيرانى ووأد إرادته وحطم روحه؟ أم أن ذلك يدخل فى نطاق كرم الطغاة للطغاة أم أنها مجاملة الأمريكان وحفظ ماء وجههم لتخليهم عن رجلهم الأثير..»

وكان يمكن لسؤال الشيخ فريد أن يمر بسلام لولا أنه تنبأ للرئيس:

«أن يشرب من نفس الكأس ويدير له الأمريكان ظهورهم بعد أن نالوا مأربهم من إصبع الموز الذى التهموه وألقوا بقشرته فى القمامة». ولم يغفروا له هذا القول.. فسحبوه إلى مكانه المعتاد فى الزنزانة..

* * *

وفى ٥ سبتمبر ١٩٨١ وفى زحام إلقاء السادات بكل معارضيه فى السجون بحث كلٌّ منهما عن الآخر وهو واثق أنه سوف يعثر عليه، وما إن التقيا حتى تساءلا مرة أخرى: «وماذا بعد؟».. وبعد حين عثرا على رأى وجداه عند كل السجناء الممرورين: **«الرجل يضع نهايته بيديه، فانتظروه مجرد ذكرى قبل الوصول.. إلى خط النهاية»**